تفكيرنا وكيف ننظمه

بقلم الأستاذ محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

فى مقالى السابق المنشور فى العدد الماضى من «المعرفة» الغراء شرحت الخطوات التى يسير فيها العقل عند تفكيره فى مشكلة ما ، وكيف ينتقل من واحدة إلى أخرى حتى يصل إلى الحل الصحيح .

وسأتحدث الآن عن شىء هام هو فى نظرى الأصل الذى يقوم عليه حل كل مشكلة عقلية معقدة ، والخطوة الأولى التى يخطوها الانسان لمعالجة مسئلة علمية أو استنتاج نتيجة جديدة ، أو تكوين نظرية من النظريات ؛ ذلك هو « الفرض » ، أو الفكرة التى يرى المرء قبل دخوله فى صميم المشكلة العقلية أنها قد يحتمل أن تكون هى الحل أو النتيجة المطلوبة ، فيعمل على تحقيقها بإثبات صحتها أو بطلانها .

فما من مسئلة عقلية أو مشكلة علمية ، إلا ولها نصيب كبير من الفرض ؛ ويصح أن نشير هنا ــ عرضاً ــ إلى بعض المعانى التى تخلع عادة على لفظة « الفرض » فتجعله مخالفاً فى جوهره المعنى الذى نقصده ونحدده فى علم النفس ؛ فهو فى الهندسة يطلق على الشكل المفهوم من منطوق النظرية أو التمرين ، أى العناصر الموجودة بالفعل والمعلومة للطالب ؛ ويطلق كذلك فى الكيمياء وغيرها من العلوم على أشياء غير كائنة بالفعل وليس لها وجود ، بل قد لا يمكن أن يكون لها وجود على الإطلاق ، وإنما يفترض العلماء وجودها لأنها تساعد على فهم حقيقة شىء آخر يتعذر فهمه، واستخدامه عملياً ، أو يصعب تفسيره بغير هذا الفرض ، كفرض (أفوجادرو) فى النظرية الذرية « أن العناصر تنقسم إلى جزيئات وهذه إلى ذرات » ؛ كذلك كان لابد من افتراض وجود الأثير فى علم خواص المادة وغيره من العلوم الطبيعية لتفسير الظواهر الطبيعية الغامضة ، وحتى علم النفس فيه أيضاً فروض كثيرة على هذا النمط ، تساعد على تفسير بعض النظريات المتعلقة بالظواهر العقلية أو النفسية الصرفة ، كفرض الازدواج أو التوازى الذى فرضته مدرسة (فنط) الألمانية لبيان الارتباط بين الجسم والعقل ، وغير هذا مما كان يعمل به فى المدارس القديمة كحقائق ثابتة ؛ وفى المدارس الحديثة كوسيلة للتفسير فقط .

وليس ثمة من شك فى أن الفرض هو نواة كل بحث ، ومفتاح كل تفكير ، وكل ما يحله العقل من مشاكل ويستنبطه من نتائج إنما يكون أساس حله فرضاً ، ولكن ليس كل ما يفترضه الإنسان بفرض مقبول ، وليس كل تخمين برأى سديداً ، فلأجل أن يكون الفرض فرضاً علمياً يصح قبوله واستخدامه كوسيلة من وسائل التفكير ، يجب أن يتوفر فيه الشروط الآتية :

١ — ألا يكون خيالياً يستحيل تحقيقه، أو موكولا للصدفة العمياء التي قد لا تحدث، كافتراض الفقير المعدم أنه سيعثر على كنز مملوء بالذهب، أو محاولة الإنسان المثقف حل مشاكله المالية بافتراض أنه سيربح في « سباق الدربى » .

٢ — ألا يكون مخالفاً القوانين الطبيعية المعمول بها الآن — على الأقل — إلى أن تتغير هذه القوانين أو يثبت بطلانها، كفرض إمكان تسيير القطارات بين الأرض والمريخ، أو إمكان استخدام الكواكب الأخرى كوسيلة للهجرة وتخفيف الضغط عن الأرض المزدحمة بالسكان. ولا بأس بهذا النوع من الفروض كمادة للخيال والتنبؤ، كما فعل (جول فرن) الروائي الفرنسي في الكثير من رواياته الخيالية التي ذكر فيها مخترعات كانت خيالا في عصره ثم تحققت بالفعل. وأما أن يتخذ حقيقة يبنى عليها أو وسيلة للوصول إلى نتائج صحيحة. فلا .

٣ — ألا يكون الإنسان متأثراً في فروضه برأي سابق أو قول مشهور أو نظرية مرجحة لم تصل إلى مرتبة القوانين . فكثيراً ما يظهر خطأ مثل هذه الآراء الخطيرة بعد أن يكون الناس قد تورطوا في الأخذ بها وبنوا عليها أموراً كثيرة كلها باطلة .

ولذلك احتاط المشرع في الإسلام فنصح بعدم الأخذ بالمشهور من الأقوال والقطع به إلا إذا وصل إلى مرتبة الإجماع، وحكم الإجماع هو حكم السنة.

٤ — ألا يكون متحيزاً لآراء تصدر عن أشخاص ممتازين، ولو كانت لهم صفة الزعامة في فنونهم أو علومهم، إذا كانت هذه الآراء في غير ما اختصوا به وامتازوا فيه، أو يسلم بوجهة نظر السلف ولو كانت صالحة، ويتأثر باعتقاد عام أو شائع، أو بحث شخص آخر، أو نتائج فرد لم تؤيدها مباحث أخرى، من غير أن يقدر ظروفهم وما ينطبق منها وما لا ينطبق منها على ظروفه الخاصة .

فقول العلامة المخترع (إديسون) في مسألة الأرواح «لو أن هناك أرواحاً تخاطب لكنت أنا أول من يخترع آلة لمخاطبتها» ، لا يصح اتخاذه أساساً للبحث في عالم الأرواح، ولو أنه صادر عن عالم كبير، كان لكلامه أثره الكبير في استهواء الناس، وكذلك (السير أوليفر لودج) العالم الطبيعي المشهور، تتناول الدوائر العلمية في العالم قاطبة آراءه في الطبيعة والكهرباء بالثقة التامة والاطمئنان لعلو كعبه في هذه العلوم ؛ أما أقواله في تحضير الأرواح فتقابل بمنتهى التحفظ .

وما أحوجنا إلى هذا الاتجاه العقلي في بلد كمصر يتكلم كل إنسان فيه عما يحسنه وما لا يحسنه، ويدلي كل مثقف وغير مثقف برأي في كل موضوع ؛ وطالما تأخر البحث العلمي قروناً لخطأ وقع فيه عالم كبير وسار فيه على أثره سائر الناس من غير مناقشة ولا تشكك .

٥ — كذلك يجب التمييز بين الاعتقاد العلمي الصحيح الذي وصل إليه الفكر البشري بعد البحث والتفكير المنطقي قروناً عديدة حتى أصبح حقيقة لا تقبل الجدل، كالاعتقاد في

كروية الأرض وغير ذلك من الحقائق التي يصح اتخاذها أساساً لفروض تفرض لحل مشكلات علمية؛ وبين المعتقدات التي نشأت عن أساطير أولية تداولها الناس جيلا بعد جيل حتى أصبحت عند العامة والشعوب الأولية المنحطة حقائق لا تقبل الشك، كفرض أن الأرض محمولة على قرن ثور.

٦ — وأخيراً يجب أن يوصل الفرض إلى نتيجة، فقد يكون صحيحاً ومنطقياً معقولا ومقبولا من كل الوجوه. ولكن الظروف الحاضرة لا يمكن أن تحققه؛ أو أن يكون الإنسان قد توصل بعد إلى استنباط الوسائل التي تجعلنا نستفيد منه.

ولا أدل على خطورة تجاهل هذه الشروط من أن الإنسان قد ظل يفكر قروناً عديدة في أمور شغلته، ويعالج حلها ويبذل في سبيلها كل ماله ووقته وجهوده؛ ولكنه انتهى من حيث بدأ ولم يتقدم خطوة واحدة لمجرد أن فروضه كانت تخالف أصلا شرطاً من الشروط السابقة؛ كالبحث في الحركة الدائمة، وتحويل المعادن الدنيئة إلى ثمينة، ومحاولات العرب الطيران بالأجنحة؛ وغير ذلك مما ملأ تاريخ العلم الإنساني.

وكذلك يرجع فشل الكثير من الثورات والتطورات والحركات الاجتماعية والمذاهب الخلقية والفلسفية في تحقيق ما تذهب إليه، وضياع الجهود الجبارة التي يبذلها أنصار هذه المذاهب والمتعصبون لها سدى، لأنها بنيت على فروض تخالف طبيعة البشر، أو على الأقل طبيعة عناصر المجتمع الذي يراد إحداث التغيير فيه؛ كالشيوعية المطلقة والمساواة بين الناس؛ ومؤتمرات نزع السلاح.

قيمة التفكير

ليس هناك من شك في أن الحيوانات الدنيا والأجناس البشرية المنحطة والبلهاء والمعتوهين وكل المخلوقات التي لم يهبها الله نعمة التفكير، تندفع في تحقيق رغباتها وشهواتها الباطنية ومطامعها الخارجية اندفاعا أعمى؛ كأن غرائزها الأولية وشهواتها البهيمية ومطالبها الحيوية؛ تدفعها من الخلف وتسيرها كما تشاء دون أن تدرك الغرض الذي تعمل للوصول إليه أو تتنبأ بالنتائج التي تترتب على سلوكها طريقاً معينة بدلا من طريق أخرى؛ فهي لا تعرف شيئاً غير الظرف الحاضر.

أما الكائن المفكر فينتفع من الماضي وخبرته في التصرف في الحاضر والتنبؤ عن المستقبل؛ وبذلك يقدر لكل شيء قيمته النسبية، ويعرف له خطره، وعلى هذه القيم النسبية يترتب كل تصميم وتنبؤ وتنفيذ؛ فالإنسان المتوحش يعتمد — لضعف تفكيره — على الذاكرة والأمور المألوفة في معرفة مواطن الخطر في الغابات والأنهار؛ أما الإنسان المتمدن، فبفضل تفكيره يستطيع أن يصطنع هذه العلامات التي يضعها هنا وهناك فتذكره مقدماً بالعواقب فيستمر في طريقه أو يتجنبها تبعاً لحاجاته. وكذلك يرى المفكر في الأشياء التي تحيط به والحوادث

والظواهر الطبيعية، معنى خاصاً غير الذي يدركه الكائن الذي حرم نعمة التفكير، فهو يرى الكرسي شيئاً يجلس عليه، أما القرد فيحسبه لعبة يقفز عليها ويكسرها أو يقرضها بأنيابه.

والإنسان — من جهة أخرى — يسمع في كل لحظة أو يقرأ عن أشياء وحوادث وأمور لا يراها، أو لم يرها بنفسه فيما مضى بل إذا لم يفكر فيها ويتحقق بنفسه صدقها يكون ناقص العلم. ولهذا ينادي جميع الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم (لوك) بوجوب تمام العناية بالتفكير وتوجيهه وتنظيمه للبحث عن الحقيقة وصحة الحكم ومعالجة مواطن الفساد والضعف فيه.

فساد التفكير

ولكن كما أن الفكر وحده هو الذي رفع الإنسان فوق مرتبة الحيوان، فهو كذلك قد يفسد ويخطئ، وينحط به إلى مستوى البهائم.

وقد أرجع الفيلسوف (فرانسيس باكون) أسباب الخطأ في التفكير إلى أمور أربعة سماها أصناماً، وهي: صنم القبيلة، وصنم السوق، وصنم المغارة، وصنم المسرح، وقد استعار هذه الأسماء من الأشياء الأربعة التي تدور حولها حياة الإنسان المتوحش، للدلالة على أخطاء التفكير والاعتقاد، التي يكون أساسها: (١) في الطبيعة البشرية ذاتها كنقص العقل وضعف الاستعداد (٢) والتي تنتج من ضرورة الاختلاط ونقص اللغة وضعف المعلومات وتشويشها وسوء تنظيمها (٣) والتي تتعلق بالفرد الواحد بصرف النظر عن الجماعة كخياله ومزاجه ومشاكله الخاصة (٤) والتي تكون نتيجة للتقليد والعدوى الاجتماعية كالأزياء (أو المودات) والعرف والأمور السارية.

وكذلك قسم الفيلسوف (لوك) الناس من حيث أخطائهم في التفكير إلى أقسام ثلاثة:

١ — الذي لا يحب أن يتعب نفسه في التفكير والتعليل، فيكتفي بقبول آراء الغير ويقلد أفكارهم. وهذا يخضع بطبيعته خضوعاً فكرياً تاماً للوالدين والمدرسين ورجال الدين وأولي الأمر وكل صاحب سلطان عليه، من النوع الذي إذا ناقش اقتبس وإذا كتب سرق، ليس لتفكيره طابع خاص وليست له شخصية.

٢ — الذي يصبغ العاطفة قبل العقل ويصبغ تفكيره بصبغة مزاجه وهواه . . . فلا يقبل رأياً لا يتفق وهواه ولا يستمع لقول ينفر منه مزاجه.

٣ — الذي يفكر، ولكن تفكيره محدود لقلة اطلاعه أو عدم اختلاطه بالناس، فتجد أن محصول عقله ضئيل ودائرة إدراكه ضيقة، وهذا يعتمد في الغالب على الأمور التي تلقنها وهو صغير، وتقبلها دون مناقشة، فصارت له بعد بلوغه ذكريات مقدسة يحتفظ بها ولا يقبل فيها جدلا، وتصير في نظره فواصل بين الحق والباطل لا تخطىء، وقضاة يحتكم إليهم في كل خلاف.

٤ — والفريق الأخير هم ذوو العقول الضيقة بطبيعتها، وهؤلاء يقف محصول عقلهم عند حد ثابت

لا يتعداد مها تعهدتهم بالتعليم والتثقيف. وهؤلاء يستمعون للرأى ويعملون بالمشورة ولا ينكرون الحقائق والأدلة ؛ ولكنهم مع هذا يصعب إقناعهم بما يقتنع به الناس العاديون.

وفى رأيى أن هناك عوامل كثيرة غير التى أشار إليها هذان الفيلسوفان قد تفسد التفكير عند الرجل المثقف وأهمها :—

١ — التسرع فى الحكم والاستناد إلى نقطة واحدة ومراعاة وجهة نظر خاصة والتعميم من حالات خاصة ، قد تكون على كثرتها أقلية إذا قيست بالحالات الأخرى ؛ قبل استقراء كل الحالات المحتملة ، تسرعاً يكون سببه قلة المعلومات أو سرعة الملل وعدم الصبر فى تتبع الموضوع الذى يشغل الفكر . ومن أخطر الأمور وأسوئها نتيجة أن يتسرع الإنسان فى الوصول إلى نتيجة خصوصاً فى المجادلات السياسية والاجتماعية العنيفة . والنظريات والبحوث العلمية ؛ لأن الناس يبدءون فيها من نقطة واحدة ثم يفترض كل منهم فرضا يخالف فروض الآخرين لمجرد المخالفة ، فيصلون جميعاً إلى أحكام متعارضة وآراء متناقضة ؛ ولهذا يتشكك الناس دائماً فى كلام خطباء السياسة والجدل .

٢ — التحيز الشخصى لكل ما يحقق المصلحة الخاصة إلى جانب ما يوافق نزعاتنا الشخصية وميولنا وهوى نفوسنا فما نغالط أنفسنا فيه أولا . ونجادل لإثبات صحته ونحن نعتقد فى صميم نفوسنا أنه باطل ، ولكننا لا نلبث أن نستهوى أنفسنا بأنفسنا فنرى الخطأ صواباً والبطلان صحة وننتقل من طرف إلى طرف .

٣ — أن يكون الإنسان لنفسه أثناء البحث والتجريب رأياً خطيراً أو نظرية خاصة من قبل أن يتحقق صحتها من كل الوجوه ؛ فهو بهذا يقيد نفسه بالبحث فى اتجاه معين بعد أن كان حراً ينشد الحقيقة أيان يجدها فيفسد بذلك بحثه ، إذ يكون مضطراً رغم شعوره إلى توفيق بحثه وتكييفه والتحكم فيه (وطبخ نتائجه) حتى يطابق هذه النظرية . ومن المشاهد أن العلماء يأخذ الناس فى التشكك فى بحوثهم بمجرد أن يكونوا لأنفسهم نظريات تعرف بأسمائهم .

٤ — ضعف الثقة بالنفس واعتقاد الإنسان أن عقله أضعف من أن يتلمس للمشكلة حلا لأن غيره من أصحاب الرأى الراجح عالجها قبله فلم يفلح .

٥ — التردد فى الرأى والتهيب دون إعطاء الحكم ؛ وعدم الاستقرار على حال .

٦ — وجود الإنسان فى وسط اجتماعى غريق فى تقاليده، متحيز لها تحيزاً أعمى ، أو فى مجتمع مثله العليا آمال كاذبة لا يمكن تحقيقها ، فتضحى الكتلة الوطنية بكل شىء فى سبيلها حتى تفنى ولا يستفيد من ذلك غير الخاصة والزعماء وأصحاب اليد القوية فوق هؤلاء وهؤلاء .

محمد مظهر سعيد